تجربتي الأدبية

من الحياتي الى الإبداعي

عبد الرحمن مجيد الربيعي

قدمت هذه الشهادة بناء على دعوة من قسم اللغة العربية في كلية الآداب بمدينة القيروان التونسية وفي إطار ملتقى «فعل الإبداع ـ أسسه وتشكلاته» الذي انعقد للفترة من ٢ ـ ٤ آذار (١٩٩١).

ـ ١ ـ

مرات عدة دعيت للحديث عن تجربتي الإبداعية عامة والقصصية منها بشكل خاص، وفي المرات التي وجدت الفرصة سانحة لتقديم هذا الحديث ـ الشهادة أجدني بعد قراءتي لما كتبت أمام حقيقة واحدة هي أن الكاتب مهما حاول أن «يسبر» أعماق تجربته وأن «يغور» في أعماقها تحليلاً ومتابعة واستنتاجاً سيجد أن شهادته الحقيقية في النص الإبداعي نفسه لا في الحديث عنه. هكذا أرى كل الشهادات التي قدمتها وقد سلكت ببعضها طريقاً قد يكون جديداً، وهو تقديم شهادة عن كل عمل بشكل مستقل، فكانت لي شهادات منشورة قدمت في هذه المناسبة أو تلك عن مجموعتي البكر «السيف والسفينة» وأخرى عن روايتي البكر كذلك «الوشم» وثالثة عن روايتي «القمر والأسوار» وهكذا.

وفي هذا النوع من الشهادات حاولت أن أدون كل ما كان يشغلني من هموم أثناء كتابتي لهذا العمل. وهي هموم تقترب أو تبتعد عن النص الإبداعي الذي يجري الحديث عنه، فالنص الإبداعي هذا وحده الحامل لأسراره ومغاليقه وهمومه وخفاياه وآفاقه أيضاً.

كما أن الحديث عن التجربة الأدبية وتكثيفها في شهادة من عدة صفحات من شأنه أن يغيّب تفاصيل حياتية إن بدت من خارج النص فهي من داخله لأنها تشكل المكوّن الحياتي والثقافي للكاتب وترسم لنا خارطة تحركه منذ الخطوة الأولى وحتى تكاثر الخطى وتزاحمها.

ـ ٢ ـ

من هنا فإنني بعد تواجد فاق العشرين سنة في الساحة الأدبية، وبعد نشر وكتابة أعمال في القصة القصيرة والرواية أولاً وفي الشعر والنقد ثانياً، وجدتني بحاجة لأن أدون فصول تلك الأيام وكيف انغرست أعمالاً أدبية قرأها الناس وتابعوها وربما بشكل من الممكن أن أصفه بأنني «أتوقعه» ولا «أتوقعه» أيضاً، وهذا ما حصل حين بدأت بكتابة سيرتي الأدبية في كتاب سبقه اسمه وقد جاء على صيغة سؤال: «أية حياة هي؟» وأنا ماض بتعثر في كتابة هذا الكتاب، ورغم محبتي لفكرته إلا أنني اكتشفت بأنني لا أستطيع أن أقول كل ما أريد نظراً للمحاذير العربية واستفحال ظاهرة الـ (لا) في قاموس أجهزة الرقابة العربية رغم انتعاش ظاهرة الـ (نعم) الراضخة في القاموس السياسي العربي.

ـ ٣ ـ

لعلني من أكثر الأدباء العرب اقتراباً من تجربتي الحياتية في كتاباتي الأدبية، ولذا أجدني أعول كثيراً على استلهام وقائع هذه الحياة التي عملت جاهداً من أجل إغنائها، وذلك بمعايشة التجارب الحارة وعدم الاكتفاء بالاسترخاء عند الضفاف وتأمل ما يجري بحياديّة سياحية.

لقد عملت على أن أكون (طرفاً) لا (متفرجاً)، وكنت أذهب إلى البؤر الساخنة ولا انتظر أن أستمع إلى أخبارها من أفواه الآخرين.

لا أريد أن أتحثر في مكاني بل أريد التحرك لرؤية الأشياء في أماكنها لأتشبع بالتفاصيل الجغرافية والبشرية والإشكالات التي قد تغيب عن مساحة بصر متفرج عادي.

ويمكنني أن أقول إنني اكتسبت الكثير نتيجة هذا الهاجس الذي صار سلوكاً وعادة.

وأمور كهذه تجد طريقها إلى كتاباتي القصصية، من الخاص والشخصي إلى ما هو عام. اقرأوا «الوشم» أو «الوكر» أو «الأنهار» لتروني فيها، واقرأوا «خطوط الطول.. خطوط العرض» لتروا كيف انعكست أحداث لبنان التي عشتها وعايشتها وكدت أن أذهب ضحيتها مراراً في هذه الرواية العربية المناخ والمدى.

والشيء نفسه من الممكن قوله عن قصصي القصيرة. ففي كمّ كبير

منها يوجد الكاتب ـ الذي هو أنا ـ سواء أكان متخفياً أم سافر الوجه والقامة والقول.

ومن الممكن أيضاً أن نقول الشيء ذاته عن تجاربي في كتابة قصائد النثر التي أطلقتها فضاء لرفيف القلب. إذ (وراء) كل قصيدة منها (امرأة) أو ـ إذا أردنا الدقة ـ (في) كل قصيدة وأحياناً ديوان منها (امرأة) كما هو الشأن في «امرأة لكل الأعوام» و«علامات على خارطة القلب» و«أسئلة العاشق» مثلاً.

وما هو شخصي جداً يدخل حتى في إطار ما يمكنني إدراجه في باب النقد. ولي كتابان مطبوعان يشيران إلى أنني لم أكتب إلا عن كتب قرأتها وأحببتها. تماماً كما حصل مع النساء اللواتي أحببتهن فصادرن كلماتي واستأثرن بها وأرّخت حبهن شعراً.

ـ ٤ ـ

أؤكد من جديد :أنا كاتب نسغه تجاربه. ورحيقه رؤيته ومداده رؤياه. وتجاربي منحازة إلى الجانب المضيء في الإنسان. ولذا فإن عدداً كبيراً من قصصي ورواياتي، إن لم تكن كلها، هي مقارعة للعسف العربي، والظلم الذي لحق بالإنسان العربي. وما زلت رغم كل المآسي المتراكمة أرى الضوء القادم ليدحر هذا الظلام المقفل.

ـ ٥ ـ

بدأت الكتابة في سن مبكرة، ونشرت في سن مبكرة، وأقول بأنني كاتب لم يمر ببريد المجلات والصحف. كان أول عمل لي قد أخذ طريقه للنشر بشكل بارز، ونشرت في مجلتي «الآداب» و«شعر» اللبنانيتين قبل أن تصلهما أسماء سبقتني في مجال الكتابة.

لم أعان من مشاكل النشر، ولم أنشر كتبي على حسابي الخاص عدا الطبعة الأولى من مجموعتي القصصية البكر «السيف والسفينة» الصادرة عام ١٩٦٦. ويومها كانت الكتب بعد نشرها بأسابيع قليلة تأخذ طريقها إلى عربات بيع الكتب وبربع ثمنها. وكنا نرى كتباً لأسماء معروفة تباع فيها حتى صار الأمر تقليداً، لكنني قلت وباعتداد عن «السيف والسفينة» فور صدوره: (إنه الكاتب الذي لن يزور عربة) وقلت أيضاً: (ولن يكون بمقدور أحد أن يشتريه بربع ثمنه). ولعلكم ستضحكون عندما أخبركم بسعر هذا الكتاب والكتب المماثلة له يومذاك فهو (١٠٠) مائة فلس فقط. وقد تصاعد سعره في الطبعة الثالثة الصادرة في لبنان إلى خمس وعشرين مرة. وقد تأكد ما قلته ووعدت به ونفد الألفا نسخة من هذا الكتاب قبل أن (يتمتع) بزيارة عربات بيع الكتب، ورافقته حملة كتابية لم يحظ بها كتاب مجايل له.

ـ ٦ ـ

هناك حقيقة صارت لي بمثابة سلوك يومي ومنهاج أسير عليه وتتمثل في (المثابرة). نعم (المثابرة) أؤكد ثانية على هذه الكلمة. كأنني لم أكتب. وكأنني لم أنشر وكأنني لم أتعلّم .ولذافإن أي يوم جديد يمر بي وعليّ يجب أن يحمل معه ما يضيف. أكتب كثيراً وأقرأ كثيراً وأتابع كثيراً حتى إن صديقاً لبنانياً هو الشاعر هنري زغيب وصفني مرة بالأديب (المؤسسة). والأديب (الأدباء).

الكتابة أولاً. وكل ما عداها يأتي ثانياً وعاشراً وألفاً في التسلسل.

وكل عائق حياتي أو وظيفي أو جغرافي يجعلني أصطدم باستمرارية الكتابة أتجاوزه لأبقي على الكتابة سلوكاً وطموحاً وقضية وأبقي على الكاتب هوية واعتداداً وعناداً.

لقد عرفت ما أريد منذ فترة مبكرة. وهو أن أكون كاتباً. فلم أهادن ولم أرضخ. ولذا لم أكن (مقبولاً) بمعنى (الاحتواء) من قبل المؤسسات والأنظمة، ودائماً ينظر إلي كمغرِّد (خارج السرب) لأنني ببساطة أكره الاندغام في الأسراب والقطعان وأعتز بتفردي وحرية قراري المستقل.

وهذا أمر ليس خارج الشهادة الأدبية بل منها. لأن هاجس التغريد خارج السرب لا الاندغام فيه كان السبب وراء كتابتي لأعمال اتفق على أنها لم (تكرر) أو (تجتر) تجارب الآخرين بل امتلكت خصوصيتها وطموحها، وسأظل هكذا، فمن شبّ على شيء شاب عليه.

لم أدرس الأدب دراسة أكاديمية بل جئته من الفن التشكيلي الذي درسته في معهد الفنون الجميلة وأكاديمية الفنون الجميلة ببغداد ومضيت في هذا المجال شوطاً أبعد عندما سافرت إلى القاهرة أواسط السبعينات والتحقت بالمعهد العالي للتذوق الفني وقد تهيأت لاعداد رسالة موضوعها «جواد سليم ومدرسة بغداد للفن الحديث». إلا أن الصديق الناقد الدكتور عبد المنعم تليمة الذي كان يحاضر في هذا المعهد (أفشل) مشروعي عندما قال لي: (ما حاجتك للماجستير والدكتوراه يا عبد الرحمن؟ دع الآخرين يكتبون عنك واحمل أغراضك وعد إلى بغداد وواصل الكتابة).

وقد استجبت لهذه النصيحة وعدت إلى بغداد وتركت زميلي في تلك الرحلة الفنان العراقي حميد العطار ليواصل دراسته ويتمها في ذلك المعهد.

وقد تحققت (نبوءة) الصديق الدكتور عبد المنعم تليمة ووجدت أعمالي القصصية والروائية (هوى) من قبل الدارسين الأكاديميين في عدد من الجامعات العربية والعالمية. وقد تجمّع لديّ عدد كبير من هذه الرسائل وبلغات مختلفة. الإيطالية، الألمانية، الإسبانية، الفرنسية ولغات أخرى بالإضافة إلى العربية.

هذا عدا ترجمة كثير من هذه القصص إلى اللغات الأخرى.

ـ ٧ ـ

كان القرآن الكريم معلمي (اللغوي) الأول، وقد قرأته عند (الملّا) قبل أن أدخل المدرسة الابتدائية، وهذا تقليد معروف في معظم مدن الجنوب العراقي وقراه. وحتى بعد أن ختمت القرآن وانضممت

إلى المدرسة الابتدائية كنت ألبي مشيئة والدي بأن أتلوه مرة تلو الأخرى في أيام الجمعة إذ كنا نحتفظ في غرفة الجلوس بنسخة منه ملفوفة بكيس حريري وموضوعة على رف حتى لا تطوله الأيدي. وكلما ختمت قراءته طلب مني الوالد أن أهديها لأرواح من توفاهم الله من أقربائنا وعلى رأسهم والدتي التي توفيت مبكرة.

وإذا كان القرآن معلمي (اللغوي) فإن لي معلمين آخرين اكتشفتهم بنفسي أو من خلال ما أقرأ عنهم أو أسمع من الأصدقاء ذوي الاهتمام، وهم كثيرون من العرب والأجانب: وكانت مجلة «الآداب» اللبنانية زادي الكبير وموئلي. هذه المجلة التي بدأت الكتابة فيها عام ١٩٦٢ ولم أنقطع عنها إلى يومنا هذا، فلي (مثلاً) في عددها الجديد قصتان قصيرتان.

ـ ٨ ـ

بعد (عمر) من الكتابة أحس بأنني قد اخترت ما أريد، وكنت (موفقاً) في اختياري. ولم أشعر بالندم يوماً على هذا الاختيار رغم أنه الاختيار الصعب وثمنه باهظ وإيقاعه خشن ومرهق، ولكنه الاختيار ـ القدر إذا جاز لي أن أستعمل هذه الكلمة التي لا أحبها كثيراً، أعني (القدر).

تونس (القيروان)

صدر حديثاً

المنام

مفكرة فيلم

محمد ملص

قال فيصل: «زي ما بيحكوا لنا أهالينا كيف نزحوا من فلسطين بالثمان والأربعين، تماماً، شفت إنه إحنا، أهالي المخيَّم، راكبين بشاحنات وحاملين أغراضنا، بس قال راجعين على فلسطين. بعد ما قطعنا «الناقورة» شفت بحيرة كبيرة، تطلَّعت وسألت أبوي عنها، قال لي «واك يا بابا، هاي طبريا، مش عارفها؟»

«حسّيت لحظتها من كلام أبوي إنه انشرح صدري، وصرت أتطلَّع، وشفت من الشاحنة الماشية الأرض خضرا خضرا، وكلها شجر زيتون.

«وبالمنام بس، وصلنا على فلسطين، ما شفت إلا كل أهالي المخيَّم صاروا يتفرّقوا وصار كل واحد يروح على بلده... يلِّلي من حيفا راح على حيفا، ويلِّلي من يافا راح على يافا... وشفت حالي بقيت لوحدي، وكلّ أصحابي يلِّلي معاي بالمدرسة، راحوا. حسّيت بوحدة شديدة. صرت أقول لحالي: يا ريت نرجع نحن يلِّلي عايشين بالمخيَّم نعمل بلد صغيرة، بلد أو قرية أو مخيَّم، يعني شيء زيّ شاتيلا يلِّلي كنا عايشين فيه... ورحت دغري أدوّر على أصحابي تقول لهم: تعالوا نعمّر بلد بقلب فلسطين تجمعنا مع بعض وتكون زيّ المخيَّم، بس لحظتها فقت.»

منشورات دار الآداب